

بِسْمِ فُوْنِيَّةِ الصَّحَراءِ

لِلأَسْتَاذِ عَبْدِ الْحَقِّ فَاضِلٍ

لم يعرفه فقال له : يا كلب ! فاجابه المعرى : الكلب من لا يعرف الكلب سبعين اسماء ! وبهذا الجواب عرف نفسه بأنه من العلماء ، ورد الشتم على الرجل ، وشتمنا جميعا .. فمن مَا يُعرف للكلب ولو سبعة اسماء ؟

واسوا من تعدد الانفاظ للمعنى الواحد تعدد المعانى للنقطة الواحدة — مما سبب الخلاف في نسب الكثير من النصوص الجاهلية والاسلامية .

ثم هناك عدم اطراد المعانى في استعمالات الكثير من صيغ التفاعل والتعميل والتتعلّم والاستعمال ونحوها ، بالرغم من اطراد تصريفها .

وادهى من ذلك عدم اطراد تصريف الانفعال الثلاثية نفسها وهي العمود الفقري للغة — ما يتطلب تعلم تصريف كل فعل على حدة ، ماضيه ومضارعه ومصدره ، بل مصادره في الكثير من الاحوال .. منها مثلاً : كتب يكتب (كَتَبَ) وكتاباً وكتبة — بالكسر — وكتابة) ، وثار يثور (ثَوَرَ) وثُورُواً وثورانا) .

هذا الى كثرة الشواذ والمستثنيات في كل قاعدة تقريباً .

حتى التفاعل يدل على المفعول احياناً . الا تصدق ؟
الجسد الكاسى (يعني المكسو) والانتف الراغم (يعني المرغوم) !

سئللت ذات مرة ان اكتب عن اللغة العربية (غناها وخصائصها) .
غناتها يعني واحدة من خصائصها — وخصائصها
تعنى مزاياها وعيوبها .

عيوب العربية

غير قليلة ، لا تحصى كثرة . منها صعوبة تعلمها بسبب كثرة مفرداتها . ومتراوحتها ، على المتعلم ، وقد روى احمد بن فارس عن الشعاليبي ان حمزة الاصبهانى قد جمع من أسماء الدواهى ما يزيد على اربعين ! ومع انه اورد ذلك في معرض المباحثاة بزيارة معين العربية ووفرة مفرداتها لم يسمعه الا ان يكمل الرواية بقوله : « وذكر ان تكثير أسماء الدواهى من الدواهى » !

وجمع بعضهم للارد خمسة اسم وللحيبة متباين ! ..

وقد سال الرشيد الاصمعي « عن شعر لابن حزام المكلى ، فسره ، فقال : يا اصمى ، إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا امير المؤمنين ، الا اكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماء ! ». كذلك رووا عن ابي العلاء المعرى ان احد السنهاء

على النصب لغير سبب مفهوم طورا آخر ، وتأتيأً مع ذكر وتذكيرا مع مؤنث في حالات دون حالات .
وما ذكرنا من مشاكل هذه العربية وتعقيباتها غير القليل جدا من الكثير جدا ، وما على من يريد أن يتفهم الحال على شيء من حقيقتها إلا أن يتورط في قراءة أي شاء من تلك المؤلفات العديدة الموسعة في قواعد اللغة صرفا ونحوا وتربيجا .

من جراء هذا كثرت المشاحنات والخصومات بين جهابذة العلماء أنفسهم في العبارة ما معناها ، واللقطة ما معناها أو ما موقعها من الاعراب – يجهل (بالتشديد) بعضهم بعضاً ويسبه ويشئ عليه .

أني لأشعر بالعطف على كل أجنبي يتعلم هذه اللغة ، بل أني ليأخذني العجب من نفسي أحياناً كيف تعلمت بعض قواعدها المعقدة كحالات العدد والمدود ، والتبييز بين طائفتين (يَقِنُ بِتُقْوَىٰ يَقِنُونَ .. وَمَنْ يَمْشِي مَشْوَا مَشْوُونَ) اللتين لم يعد يفرق بينهما إلا الآتلون .. المتنطسون .

وما لنا نرى للجانب ، وما هم تلاميذنا أو لادنا المساكين يعانون من تعلمها رَهْتاً ما بعده رهق ، ويرسب بعضهم العام أو العاين في فصله من اجلها ؟ حتى غدت عند الآخرين منهم أشق مواد الدراسة والمنها .

ما أقول كل هذا – ويمكن أن يقال أكثر منه – لأند بلغتي التي اتعشقها ولا أعدل بها لغة في التاريخ – ولا في الجغرافيا – لكن هذه المصاعب في تعلمها في هذا العصر الذي تتعدد فيه مواد الدرس ، والكتبو منها علمي تطبيقى مما يفتقر اليه كل بلد متحضر أو سائر في سياق التحضر – هذه المصاعب اللغوية – بل المصائب اللغوية – قد أضفت تعلم العربية نزادات إغلاق الكتب والترجمين إلى درجة خطيرة حقاً وركّت أسلوباتهم حتى أصبحت الأخطاء والركرة تراثاً للجيل الجديد وأصبحت اللغة تزداد ضعفاً وانحللاً يوماً بعد يوم .

هذه المشاق والتعقيبات لم يكن يحس بها المرء الباهلى لأنه يرضع اللغة مع الحليب ونادرًا ما كان يلحن . والعرب المسلمين كان يرضعها مع الحليب أيضاً لأن لغة الكلام كانت ما تزال الفصحى ،

حتى المؤنث يدل على المؤنث أحياناً ، مثل نسبة (بالتشديد ، أى نسّاب) ورواية (أى راوٍ) .. ومثل حجزة وطلحة وعنبة : أسماء رجال !

حتى المذكر يستعمل للمؤنثة أحياناً ، مثل : ظئر ومرضى وحامل .. ومثل حدام ونعم وزينة : أسماء نساء .

وهناك ما يطلق على المذكر والأنثى كالخادم والغميل كالجريح والعمول كالصبور .. والطلسل يعني المذكر والأنثى والفرد والجمع ! ومن المفرد الذي يدل على الجميع عدا ذلك : الركب والسفر والسكن (كلها زنة النصر) أى الركاب والمسافرون والسكان .

ثم لديك المفرد الذي لا جمع له من لفظه والجمع الذي لا مفرد له من لفظه ..

اما جموع التكسير نائٌ شيء نقول عنها ؟ السيد جموعه على : سيف واسيف وأسياف وأسيف (كاروس) ومسنفة (كجزرة) .. والسد جموعه على : أسد (ككتب) وأسد (كثغر) وأسود (كرؤوس) وأسد (بضم السين) وأسدان (كجُرذان) ومسدة .. والشيخ على : شيوخ (بالضم) وشيوخ (بالكسر) وشياخ ، وشيبة (كصيفة) وشيبة (كبيكة) وشيخان (كحيتان) ومشيوخاء (بالفتح) ومشياخ ومشيبة (كهدنة) ومشيبة (كهزلة) .

والاسماء التي لا تملك مثل هذه الثروة الطائلة من تعدد الجموع لا يمكن التوصل إلى معرفة جموعها فيما قل عددها ، عن طريق التقياس ، فلابد من تعلم كل واحد منها بالسماع . أما حالات جمع الجمع فنعنيك من سردنا وحسبنا وحسبك منها قوله : « ليس في كلامهم جمعٌ سَتَّ مرات الا الجمل نائم جموعه : أجْمَلُ ، ثم لجمَلًا ، ثم جاملاً ، ثم جمالاً ، ثم جمالة ، ثم جماليات . قال تعالى : « جِمَالَةٌ شَنْرٌ » فجماليات جمع جمع جمع الجمع » ! *

ثم يأتيك العدد والمدود فيبطشان ما شاء لهما البطش بقواعد اللغة افراداً وجماعاً ، وجرا على الاضافة آنـا ونصبا على التبييز أوـنا ، وتغيير حركة آخر المدود حسب موقعه من الاعراب طوراً وبناءه

وما علينا نحن اليوم إلا أن نحذو حذوهم ونكم ما بدأوا
فخلفي الباتى من المستثنىات الراخمة مراعاة لظروف
عمرنا وابقاء على كيان اللغة الذى يوشك ان ينهر ،
واللغة على كل حالة اداتها ولسنا اداتها .

وتقييس اللغة ليس من اختراعنا فقد كثر القائلون
بـه والداعون اليه ، من الاحداثين ومن الاتمنين الذين
قال بعضهم مثلا ان كل أسماء الجمادات يجوز فيها
الذكر والتأنيث ، واقتصر بعضهم بتقييس الاعمال الثلاثية
وتوحيد أبوابها السنتة في باب واحد كفتح يفتح مثلا .
والذى نقترحه نحن بدلا من ذلك تصنيفها بحسب معاناتها
للاستفادة منها اولا والتخلص من فوضاهما الراهقة
ثانيا .. بالإضافة الى ضرورة تقييس مصادرها بدلا
من تركها من غير ضابط ، على السماع . والسمع على
كل حال لم ينقل اليانا من اللغة الا الجزء الاقل .

حتى لو لم يكن القدامى قد قالوا من ذلك شيئا
نواجهنا نحن اليوم تجاه لفتنا وتجاه انفسنا أن نتوله
ونقول معه كل ما نراه صوابا .

ولا منر من التنازل عن بعض الاجزاء ، والا خسرنا
الكل خسانا مبينا . وان مع العسر يسرا .

ومتنى تم لنا اصلاح لفتنا العظيمة وسهلنا تعلمها
تبت لنا مزاياها وساغ تعلمها على ابناها وعلى الاجانب
الذين سيقبلون عليها ايمانا اقبال ولا شك ، وخاصة
يوم يأخذ اهلها العرب مكانهم الدولى والحضارى في
الطليعة مع الشعوب التى تتقد الرقى البشرى علم
ونتقا وانسانية وسلاما .. ف تكون لفتم بالإضافة الى
مزایاها الأخرى ، التى ستحدث عنها وشيكا ، أكمل
اللغات بحق وأوانها بحاجات العصر . بل ان بعض
الشعوب المسلمة سوف تبنيها بدلا من لغاتها الحاضرة
ولا سيبا اذا كانت لغتها هذه ليست بالقومية الأصلية .
وفي باكستان مثلا حركة كبيرة تدعى الى تبنى العربية
نيحتاج عليها المعارضون بصعوبتها . والكثيرون من طلاب
اللغات في الجامعات العالمية يودون تعلم العربية ذات
المجد والتاريخ قديما وذات الأهمية السياسية
والاقتصادية حاضرا ، لكن ما يسمونه عن هذه الصعوبة
الشاذة يصرف الاكثرین منهم الى تعلم لغات أخرى .
لا ندرى بعد كل هذا — ايها العزيز القراء —
ما رأيك في اى الابوين اشد حبا لولده المريض .. ذلك

وكان يدرسها في نفس الوقت ويجد في درسها متعة
ومياعا . أما اليوم وقد تغيرت الظروف هذا التغير
الماهيل فقد اصبح تعلم اللغة على الاسلوب التقى من
المستحبات — الا على ذوى الاختصاص . حتى ذوق
الاختصاص وحتى حملة شهادة الدكتوراه المتخصصون
باللغة يرتكبون احيانا من الاخطاء ما ليس مقبولا لو
صدر عن تلاميذهم .

وما زالت الاخطاء المشتركة تتزايد والمعارضون
باللغة يتناقضون . ولوسوف ينفرط عقد العربية في
بضعة اجيال حتى تندو لغة عامية مشتركة بين الاقطار
العربى ، بلا حركات اعراب ولا ضوابط ..
وتنقص الصلة بيننا وبين تراثنا المؤثر الباهر ذاك ،
في ميزة نهضتنا ونشوتها .

رب يسر

ولو كان تعدد القواعد وتنوعها وكثرة الشواذ
ما يعد ثروة لغوية مثل تعدد المترادفات اذن ل كانت
العربى اثري اللغات بقواعد النحو والصرف أيضا ،
وهي فعلا اغنناها بكتابها النحوية واللغوية وتخريجاتها
وتأويلاتها ترقى الدارسين ولا تضيق الى العلم
والمعرفة بشؤون الكون وأسرار الحياة ، فتيلا .

عندما تسلم النحاة هذه اللغة درسوها ومحضوها
وأخذوا بما اتفقت عليه اکثير القبائل ، ونفعوا ما انفردوا
به قبيلة او قبائل بما يخالف الغلبية . نبغوا مثلا لغة
« نحن الفون متباحوا الصباحا » وأخذوا باللغة الاروج
وهي لغة (الذين) مع ان الاولى اصح في حالة الرفع ،
ونفعوا رفع اسم (إن) في لغة « إن هزان لساحران » ،
ولغة (استمررنا) بمعنى (استمررنا) ، وابطلوا عمل
(ما) الجازية .. وانفروا نطق بعض الحروف في بعض
اللهجات لندرتها ولاتحصارها في عدد محدود من العرب
مثل : الكشكشة والشننشة والتضجع والاستنطاء وما
إلى ذلك * .. بصرف النظر عما اذا كانت حسنة او
سيئة .

وبالرغم من كل ما حذفوا بما لا يكاد يحصى كثرة ،
ووجدوا مستثنيات كثيرة تتشذ عن القواعد العامة — لكنها
مستثنيات مشتركة بين كثير من القبائل ثم يحذفواها بل
تندوها وفرضوها علينا . حذفوا الكثير وبقى الاكثر ،

* للمزيد يراجع : احمد تمور باشا — كراس « لهجات العرب » .

رابعاً : عند تأثيلهم الالفاظ الاوربية يعيدونها — كالذى قلنا مارا — الى بعض اللغات الازية القديمة على الالغب ويقونون عند ذلك الحد ، لكن العربية ذات الثروة القارونية اوحت لنا ذات يوم عند تأثيلنا لبعض الفاظها ان نترجمها الى بداياتها الاولى التى حاكى بها الانسان الاول بعض الاصوات ثم تطورت على مر الاجيال حتى تكونت منها الفاظ جديدة في المعنى والمعنى ، مثل تسمية الفرّوج (صومي) في بعض الدارجات من صوته ، والمواء من قول الهرة (ميو) ، والمواء من صوته (هooo) ، وما الى ذلك . فهذا الايل البدىء الصوتى الذى سميته (الرس) الذى يعني معجمياً : بداية الشيء ، ادى بنا الى وضع ما سميته (علم الترسيس) اي البحث عن ارساس الالفاظ ، لا للغة العربية وحدها بل كذلك للآريات والجاميات والساميات اللواتي قلنا انهن بناتها ، لأن الكثير من الفاظهن ما زال يمكن ارجاعه اثلاً الى اللغة الام . وهذا اظهر لنا ان اللغة العربية قادرة بمفردتها ان تبرهن على صحة (علم نشأة اللغة) وتكتشف عن اسرار تكونها ونضجها وطرائقها التطورية العجيبة .

خامساً : ومن افضال العربية ومزاياها ان فيها الفاظاً كثير عديدها عريقة النسب جداً قديمة في الوجود ، منذ عهود ما قبل التاريخ اي قبل عهود اختراع الكتابة ، تدل على معانٍ واحدات باد اهلوها ولم يبق من الآثار التنقية ما يدل عليها ، ومن مقارنة تلك الالفاظ بعضها ببعض ومراتبة سيرها النطوي من زمان الى زمان وانتقالها على الخريطة من مكان الى مكان على الالغب ، يمكن استخلاص حلائق تاريخية مجهولة لو لا سجل اللغة — العنوى — هذا لبقيت الى الابد مجھولة .

منشأ العيوب والمزايا

هذه المزايا وتلك العيوب .. ما منشؤها ؟

لندھش القاريء العزيز نقول ان منشأهما واحد . فاللغة العربية بحسناتها وسيئاتها ليست الا حوصلة رحلتها الطويلة في التاريخ وترحلها المتقلل الدائب في حيز محدود من الجغرافيا — المعرفة .

كنت قرأت بحثاً للمؤرخ العالمي المشهور (تونين) عن تحول الجزيرة العربية الى هذه الصحراء الرملية بعد ان كانت في العهد الجليدي غابة لقاء تزخر بالحياة

الذى يسلمه ليد الجراح يفحصه ويكشف علته او عله ثم يجري له الجراحة تسيل دمه وتبضع لحمه لتشفيه مما يعاني فيتتمتع بالحياة ناشطة منتجة ، ام ذلك الا بـ الذى يخشى عليه الالم فيحوطه بالحنان التقليدى المتهيب الجروع ويتركه خاماً يذوى ويدوى الى ان يفارق الحياة .

مزايا العربية

ولئن كانت كل اللغات تشارك عربيتها في الكثير من عيوبها فإن لها مزايا تفرد بها دون لغات اهل الارض منذ ظهرت اللغات ونطق ابن آدم .

من هذه المزايا اولاً هذه الكثرة الكاثرة في المترادات والصيغ والاشتقاقات — مما ذكرناه في عدد العيوب بالنسبة الى المتعلمين ، فهي نعمة للادباء المترسبين الحذاق هذه المرة .. مع وفرة طائلة في التعبير الحضارية والنكرية والشعرية ، الى جانب الالفاظ الصحراوية البدائية . فمع ان المجمع العربي (مجمع بدوي) لأن رواة اللغة لم ياخذوا عن الحضر ولا عن القبائل المجاورة للحضر او الاعاجم ، بل اقتصرت على البدو الخلق الاتصال .. لشد ما يدهشنا ما نراه من غزاره المادة الحضارية والفكرية الرائعة فيه .

هذه الثروة الفاحشة ساعدت العرب منذ القدم على قرض الشعر والتصرف وتنوع طرائق التعبير فيه ، ونظم المطلولات من القافية الواحدة يبلغ عديد بيوتها المئة والمتين — ما لا نظير له في اية لغة اخرى .

ثانياً : تبين لنا في ابحاث سابقة ان اصل الاربيين قد كان من الجزيرة العربية ، ومن ثم فإن اللغات الاربية شرقية كانت كالفارسية والسنسكيرية واليشتونية (الانغانية) ، ام غربية كالاغريقية واللاتينية والكلامية والغالبية ووارثتها الاوربيات الجبيثات — هذه اللغات كلها مع اللغات الحامية والسامية : بنيات العربية .

ثالثاً : ومن مزاياها الخطيرة غير المظورة انها اصيلة ، او باصطلاحنا ائلية ، لاتها من صنيع اهلها ، نبت ونشأت واقتلت في موطنها ، على المستفهم .. خلانا لمعظم اللغات الاخرى ، حية او ميتة ، قديمة او حديثة .. لانها كلها لم تنبت في الارض التي يتكلم بها اهلها ولا هم الذين صنعواها او نشأوها وربوها ، هذه الخصلة الندية أنجبت المزيدين التاليين .

فردا يلتقيء الى عشرة اخرى فيتزوج وينجل نبهم .
وفي جميع الحالات يأخذ الافراد والجماعات
لقتهم معهم حيثما ذهبوا ، واذا بحياة العزلة تطور
اللفة على السنة نئة في اتجاه غير الذى تتطور فيه
على السنة نئة اخرى . مما كانوا يطلقونه على الارض
الصلبة البيضاء هنا يطلقه بعضهم هناك على الارض
البيضاء ولو كانت رخوة ، وما كان يطلق على التل
الصغير صار بعض المنشقين يطلقه على الجبل الذى
يجدونه في ارض نجعاتهم مثلا . وقد سبق ان استشهدنا
على مثل هذه التطورات بالكثير من النماذج ، نذكر
منها هنا (البرق) الذى اصل معناه بياض يلمع في
لون آخر كالبرص ، فصار يعني معموما كل شيء اجتمع
فيه سواد وبياض ، ثم صار يعني الارض الفليلظة
فيها حجارة ورمل وطين .. ثم نطقه قوم (البرق)
بنفس معناه الاول اي : الاسود والبياض . وهو
ينطق (بلق) بسكون اوله في الدارجة المغربية ويعنون
به : الشديد بياض البشرة . وهكذا اختص بلون واحد
وفقد الآخر . لكن نفس الصيغة اي (black)
تعنى بالانكليزية اللون الآخر فقط اي الاسود . وهي
تنطق blanc بالفرنسية و بالاسبانية blanco
و blanco بالإيطالية لكن بالمعنى المغربي اي البياض .
واسم الحيوان صار يعني حيوانا آخر او اكثر
من حيوان مثل السمة (كاللهمة) وهو من اسماء الاسماء
اطلق على الذكر من الحيات وانثى ، التنفذ .

ويتغير النطق كذلك اذا كان احد الابوين التغ او ارتل نبيؤثر في اولاده . والغلب ان الكبار يقلدون رؤسائهم في النطق ولا سيما شيوخ العشائر .

.. فيكون اختلاف اللنفظ في جميع هذه الحالات وغيرها — وهي كثيرة — منثا الفاظ جديدة متقاربة في المعنى والمبنى ، وهو ما أثار تعجب تلاميذ اللغويين وأعجابهم مذ عذوه من بدائع العربية وسموه تصاقب المعانى بتصاقب الانفاظ . من النماذج الكثيرة : سل ، سلت ، أصلت .. هواء ، هباء ، هباب ، قص ، قسم ، قسمة ..

وقد تباعد الفاظ متصاتبة فلا يبقى بينها شبه ظاهر ، مثل فعلٍ : قط وَهُذُّ ، فقد تطورت (قط) مكذا : قط - قد - قذ - خذ - حذ - هذ ..

وأن كل المعنى قد ظل هنا ضمن نطاق (القطع) فإنه قد يتغير مع تغير اللحظة في بعض مناحي التطور

والبياء . موجزه : ان سكان المنطقة حين صوّرت بهم
الفابة الفيباء وتناقشت خيراتها كانوا ثلاثة طوائف ،
قطائفة هاجرت الى مناطق خصبة اخرى فنجت ،
وطائفة كينت نفسها مع البيئة الجديدة فعاشت ،
وثالثة لم تهاجر ولم تستطع ان تتكيف مع البيئة فبادت .
ولم يتحمّل (تويني) عن النتائج اللغوية التي قد
تكون نجمت من هجرة النازحين وتكيف الバتين . وليس
لنا ان نعاتبه فهو مؤرخ لا لغويا ، وانما نحن المطلوبون
بان نبحث ونتسأّل .

فـ وسـعـنـا ان نـتـوـل بـسـهـولـة ان تـلـك الـمـجـرـات
تـقـلـت لـغـة الـقـوم وـلـهـجـاتـهـم إـلـى الـمـنـاطـقـ الـتـى هـاجـرـوا
إـلـيـها .. إـلـى اـيرـان فـالـأـفـغـان فـالـهـنـدـ شـبـرـقا ، وـإـلـى الـهـلـلـاـلـ
الـخـصـيـبـ فـالـاتـضـوـلـ فـارـبـاـ شـمـالـاـ ، وـإـلـى الـحـبـشـةـ
وـمـصـرـ فـالـشـمـالـ الـأـفـرـيـقـىـ إـلـى اـقـمـاهـ غـرـبـاـ . يـتـاـيدـ هـذـاـ
لـنـاـ إـذـاـ تـبـعـنـاـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـفـاظـ الـمـتـشـابـهـ بـيـنـ الـعـرـبـيـةـ
وـلـغـاتـ هـذـهـ اـلـسـاقـاعـ وـلـاـ سـيـماـ فـيـ الضـمـائـرـ وـأـسـماءـ
الـاـشـارـةـ وـالـأـفـاظـ الـطـبـيـعـةـ الـبـدـائـيـةـ - كـمـاـ سـيـقـ أـنـ تـلـنـاـ
فـ إـبـاحـتـ سـابـقـةـ . وـالـأـورـبـيـونـ يـسـمـونـ لـغـاتـهـمـ (ـالـلـغـاتـ
الـهـنـدـيـةـ /ـ الـأـورـبـيـةـ)ـ لـأـنـهـمـ وـجـدـواـ شـبـهـاـ بـيـنـ السـفـاطـ
لـغـاتـهـمـ وـالـأـفـاظـ السـنـسـكـرـيـتـيـةـ (ـالـلـغـةـ الـهـنـدـيـةـ الـتـدـيـمـيـةـ)ـ،ـ
وـإـذـاـ كـانـ ذـلـكـ يـبـنـيـءـ أـنـ الـأـورـبـيـينـ قـدـ قـدـمـواـ أـصـلـاـ مـنـ
الـهـنـدـ فـانـ اـسـتـنـتـاجـنـاـ يـبـنـيـءـ أـنـ الـكـثـيرـيـنـ مـنـهـمـ قـدـمـواـ مـنـ
الـأـرـضـ الـعـرـبـيـةـ رـأـسـاـ أـيـضاـ . وـإـيـةـ كـانـتـ الـحـالـ فـانـ مـنـ
الـبـدـيـعـيـ أـنـ بـوـسـعـنـاـ أـنـ نـسـمـيـ تـلـكـ الـلـغـاتـ عـلـىـ وـجـهـ
الـأـجـمـالـ بـالـلـغـاتـ (ـالـعـرـبـيـةـ /ـ الـهـنـدـيـةـ /ـ الـأـورـبـيـةـ)ـ .

من أجل هذا قلنا في مطلع الحديث أن اللغة العربية لم اللغات الأزية بالإضافة إلى الحامية (لغات الشمال الافريقي والصومال) والسامية (لغات الهلال الخصيب ومصر والحبشة) ، وأن العربية ليست قادرة على ترسيس الانفاظ لنفسها فقط بل ببناتها من هذه اللغات أيضا .

ان حياة الترحل والنجمة في تلك البيداء العربية
تسمى القوم بطونا وقبائل كما تسمى مواطن الخصب
المستديم الى قرى ومداشر . وتنقل تلك البطون والقبائل
على غير نظام — واحيانا على نظام — من منطة في
موسم الى اخرى في موسم آخر .. فنتقارب طورا
وتبتعد طورا ، ويندرج بعضها في بعض آونة وينشطر
بعضها من بعض اوانا .. وكثيرا ما تضرر الفنوف
عائلة من القبيلة الى الانسلاخ من مجموعتها .. او

وخارجها — خلق هذه اللغة الفخمة السمينة ،
والعلاقة بين اللغات .

ولو كانت البداوة انقرضت قبل جمع اللغة لصاع
 علينا الكثير من الانماط البدائية التي ما زالت فيها آثار
 متشائمة الصوتى ينم عليها ، وتدحرى ذلك معملاً للغات
 التي غادرت المعرفة وابتعدت ولو قليلاً عن ثلواتها
 كالساميات الالئى فقدن من ذلك الشيء الكثير ،
 والحاديئات الالئى كن أبعد في المكان وأقدم في الزمن
 مكان ما فقدن اكبر مما فقدت السامييات ، ثم الآريات
 الالئى انقطعت صلتها بالارض الام واهلها — حتى
 ما كان منها قريب المكان كالفارسية — فكان ما فقدن
 أكثر وأكثر .

وهكذا تكونت مزايا اللغة العربية وعيوبها —
 بيدا بيد .

البدائية والرقى

يقول فقهاء علم اللغة المحدثون من الفرنجة إن
 اللغات البدائية هي التي تذكر فيها الانماط القريبة من
 بدايتها الصوتية ، على حين أن اللغات الراقية لا يوجد
 فيها من ذلك الا القليل الاقل . وكثيراً ما نسمع حتى من
 بعض اللغويين العرب من يستنتاج من ذلك ان العربية
 لغة بدائية من ثم .

الفكرة من أساسها مفلوطة ، تعميم . وجدوا هذا
 في لغات بدائية وهذا في لغات راقية ، فتالوا ذلك على
 ذلك . وجعلوها قاعدة ، المظاهر شيء والسبب شيء آخر ، ان كلام رجل ملتقط بالانكليزية وكلام رجل حليق
 اللحية بالفرنسية لا يعني أن اختلاف حالة اللحية هو
 سبب اختلاف اللغة . فلنبحث من سبب معقول لوجود
 الجذور الصوتية في اللغات وغيابها ، غير الرقى
 والبدائية .

اللغات البدائية بقيت بدائية بقيت الماظتها قريبة
 من ارساسها الصوتية لأن اهلها لم يخططا بغيرهم ،
 لا لأنهم لم يرتقوا . أما الشعوب المتحضرة — الاوربية
 مثلاً — فقد جاءت من مناطق أخرى ولغاتها خليط من
 لغات شتى .. ابتعدت عن متشائمتها واهلها ، وفقدت
 جذورها الصوتية لا عند ما ارتقى اهلها ولكن منذ
 كانوا همجاً متوجهين ، في اوروبا نفسها ، بل قبل ان
 يأتوا الى اوروبا ايضاً .

مثل : حذ — حسن — حش — عش ، عاش ، ميش :
 (حياة او حبز) .. او هكذا : حش — حشا ، حشية ،
 ومنها حشية الثوب ، ثم حاشيته ، ثم حاشية الكتب .
 وما أبعد كل هذا عن الرس (تط) في اللفظ والمعنى .
 ومن أمثلة اختلاف النطق ما زال القات يلفظ في
 دارجاتها على اربعة اوجه ما بين بدو وحضر في مثل :
 قاعد ، كاعد ، جاعد ، آعد .

ماذا كان هذا شأن الكلمة من رس واحد مما
 بنا بالكلمات الكثيرة المنحدرة أساساً عن ارساس شئ ؟
 اظننا نهمنا من كل ما تقدم كيف تعددت الفاظ
 المعنى الواحد وكيف تنوّعت معانى اللفظة الواحدة بما
 اعني اللغة — ومن ثم كيف تباينت وأصطبغت طرائق
 التعبير واختلفت تواعد النحو والمصرف .

ماذا تلاقى بعض اولئك الضاريين في آفاق تلك
 الجزيزة العربية النسيحة الارجاء ، فاندمجت قبيلة في
 قبيلة .. اندمجت اللقنان .. لا كما هي الحال في الحضر
 حيث يقيم كل فريق في حي من البلدة الواحدة ميظالون
 متجاورين محاظين على لقائهم ولهجتهم .. فان القبيلة
 في البدائية كلها حي واحد ، يلعب صغارها معاً دون تمييز
 بين طبقات ، ويحضر كبارها كلهم في مجلس الشيخ
 على سواء ، ويضربون خيامهم معاً عند الفرزول
 ويتوصولونها معاً عند الرحيل . فما هو الا جبل او جبلان
 حتى تندمج اللقنان فتختلط الانماط للمعنى الواحد وتتعدد
 المعانى للفظة الواحدة .

نلو ان القبائل العربية قد اجتمعت كلها في صعيد
 الى غير انترارق لتوحدت لغاتها في لغة واحدة ، ولو
 قد افترقت كلها عن بعضها بعضاً الى غير لقاء لتعددت
 لغاتها وتباينت حتى لا يعود بعضها يفهم من بعض
 ولا يصبح لهجات كل من القبائل المنتشرة لغات محلية
 ضيقه الابعاد بالنسبة الى اللغة الام ، كالذى وقع
 فعلاً للبابليين والكمانيين وغيرهم من السامييين — والى
 حد ما للحميريين (أهل الين) .

لكن تكرار الانترارق والانشطار الذى ينجب الانماط
 الجديدة والمعانى الاصطناعية او المختلطة ثم تكرار اللقاء
 الذى يجمع كل الحاصل الجديد في بوقته واحدة ، ثم
 اتصال البداوة من جهة اخرى لضرورة التبادل المستمر
 من العروبة المتحضرة على جوانب المعرفة — في داخلها

مع أنه لم يسبب لنا ضررا ولا هم ذكرى أنه ارتكب جنائية . ان كانوا لا يريدون ان يستعملوه فمن الذى أجبرهم على أن يستعملوه ؟ وان كانوا لا يريدون منا أن نستعمله فمتى استعملناه ؟ أنى لم أفهم ماذا يتعمدون . يديهم أن المعجم الوجز الطالبي يخلو من الانفاظ المجرورة وحتى القليلة الاستعمال . وفى كل لغة معاجم جبيب صفيرة بحجم الكف او أصغر أحيانا تقتصر على الانفاظ الأساسية التي يحتاج إليها المتعلم وطنيا او أجنبيا ، ثم يكبر حجم المعاجم في طبعات مختلفة ، ويكبر حتى يصلع العدد العديد من المجلدات الضخمة . ولكن من الناس حجمه الذى يناسبه من المعاجم والملابس . بما بالنا لا نرضى ان تكون كذلك الحال فى عربيتنا ؟

ثم كيف نفهم تراثنا الجاهلى ، بل حتى الاموى ، بل حتى العباسى ، اذا نحن صنينا معاجمنا من الانفاظ التى أصبحت اليوم م مجرورة وكانت دارجة فى لغة الحديث اليومى عند اسلامنا ؟ ان كل لفظة لغوية كانت فى مهما يكن اليوم مغمورا مهملأ . من الذى يطالعنا بآن نندها فعل الجاهلية ؟ كل كلمة لها حكايتها . نطق بها ناس من الاجداد وسجلوا بها شيئا من مشاعرهم او نبذة من حياتهم .

انظر الى كلمة (اعتندي معتقد اعتقد) . لفظة م مجرورة ، نعم . غريبة لا جاذبية فيها ولا رشاقة ولا موسيقا ، نعم . لكن لها تاريخها . فلنسمع مأساتها : « العند (بالفتح) — طائر يشبه الحمام ، او هو الحمام . والاعتقاد ان يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل احدا حتى يموت جوعا .. قال محمد بن انس : كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخاموا ان يموتونا عليهم ببابا وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتونا جوعا . قال : ولقي رجل جارية تبكي ، فقال لها : مالك ؟ قالت : نريد ان نعتقد .. » — اللسان .

انهذه كلمة يحل لاحد وادها مجرد كونها حوشية م مجرورة وهي تحمل مثل هذا التاريخ الناجع ؟ كيف نعرف مأسى تلك الصحراء ودواهيبها وحروبيها وغرامياتها .. بدون معونة هذه الكلمة وأمثالها ؟

اما اطلاق (العند) على الحمام فسببه ان من سجية هذا الطائر ان كلا من الذكر والانثى يعتقد اذا نكل مصاحبـه — فيضرب عن الطعام والشراب حتى يموت .

بالاضافة الى ما للكلمة من قيمة تاريخية

لقد ثنا ثوا ان الساميـات فقدت الكثير من ارسائـها وائلـها لاتسلاخـها عن المجموعة الـعربية ، مع ان مواطنـها بقـيت قـرية من الوطن الـام .

ولا ادل على نسـاد نظـريـتهم من ان اللغة العربية تـد جـمعـت بين الـخـصلـتين ، بـنـوـها تـنـطـبـقـ عـلـيـمـ القـاعـدةـ الاولـى (عن الـبـدائـين) وـحـضـرـها لا تـنـطـبـقـ عـلـيـمـ حـالـةـ الـاوـرـيـبيـنـ المـتـحـضـرـينـ مـثـلاـ لـانـ الـعـربـ بـدوـهـمـ وـحـضـرـهمـ لمـ يـفـادـرـواـ مـعـرـيـتـهـمـ وـلـمـ يـتـعـدـواـ عـنـ موـطـنـ آـبـائـهـ الـاـوـالـ واختلاطـهـ بـلـغـاتـ بـدـائـيـةـ اـخـرىـ .

ويـكـنـىـ انـ نـصـعـهاـ قـاعـدةـ عـامـةـ فـنـتـولـ : « انـ السـبـبـ فـيـ خـيـاعـ الـجـنـورـ الـعـسوـيـةـ مـنـ الـلـفـاتـ لـيـسـ التـحـضـرـ وـالـترـقـىـ ، بلـ الـمـجـرـاتـ وـالـخـالـطـاتـ » .

انـ الـذـىـ ذـكـرـنـاـ آـنـاـ مـنـ كـثـرـ الـتـطـورـاتـ الـلـغـوـيـةـ الـتـىـ حـقـقـتـهـاـ كـلـ تـبـيـلةـ عـلـىـ حـدـةـ ثـمـ اـجـتـبـاعـهـ لـتـبـادـلـ ماـ جـدـ لـدـىـ كـلـ مـنـهـ مـنـ الـفـاظـ وـمـعـانـ تـنـضـافـ اـلـىـ رـصـيدـ الـلـغـةـ الـمـشـرـكـةـ — لـاـمـ يـشـبـهـ اـسـرـةـ يـخـرـجـ اـفـرـادـهـ لـلـكـسـبـ ثـمـ يـعـودـ كـلـ مـنـهـ بـحـصـيلـةـ كـدـهـ لـيـضـبـيـنـهـ اـلـىـ ثـرـوـةـ الـاـسـرـةـ .

حتـىـ بلـغـتـ ثـرـوـةـ الـلـغـةـ ذـلـكـ الـحـدـ التـضـخـمـيـ المشـهـورـ . وـاـنـ شـكـاـ بـعـضـهـمـ قـلـيلاـ مـنـ تـكـاثـرـ مـفـرـدـاتـ الـعـنـىـ الـواـحـدـ نـانـ الـاـمـ الـذـىـ طـالـماـ شـكـوـاـ مـنـهـ كـثـيرـاـ هوـ تـمـددـ الـمـعـانـىـ لـلـنـظـرـ الـواـحـدـ . وـغـرـبـ اـنـ يـصـدرـ مـثـلـ هـذـاـ التـشـكـىـ عـنـ مـتـقـنـينـ مـنـ الـعـربـ الـذـينـ يـتـنـتـنـونـ لـفـةـ اوـ اـكـثـرـ مـنـ لـفـاتـ الـاقـطـارـ الـرـاـقـيـةـ الرـائـدـةـ فـيـ مـجاـلاتـ الـعـلـمـ وـالـمـخـرـعـاتـ . اـقـلـمـ يـلـاحـظـواـ انـ ذـلـكـ شـانـ الـلـفـاتـ الـاجـنبـيـةـ اـيـضاـ اـنـتـحـواـ ايـ مـعـجمـ بـالـاـنـكـلـيزـيـةـ اوـ الـفـرـنـسـيـةـ ، وـهـاـ لـفـتـانـ حـدـيـثـانـ وـطـفـلـانـ بـالـقـيـاسـ اـلـىـ الـعـرـبـيـةـ الـنـافـحةـ الـمـكـتـمـلـةـ الـقـدـيمـةـ ، تـجـدـواـ العـجـبـ مـنـ نـوـصـيـةـ الـنـافـحةـ الـمـعـانـىـ وـتـبـيـانـتـهاـ ، حتـىـ فـيـ الـمـسـطـلـحـاتـ الـعـلـمـيـةـ وـالـتـقـنـيـةـ الـحـدـيثـةـ .

لهـذـاـ عـبـيـبـ التـطـورـ الـلـغـوـيـ لـاـ مـيـبـ الـعـربـ وـلـاـ عـربـيـتـهـ .

المـجـرـورـ

كـثـرـ الـمـجـرـورـ عـلـىـ الـحـوشـيـ الـمـجـرـورـ فـيـ مـعـاجـمـاـ الـعـرـبـيـةـ وـالـمـطـلـبـةـ بـاـعـدـاـمـهـ وـتـصـنـيـفـةـ الـلـغـةـ مـنـ غـوـالـهـ ،

« الماء الذي يكون تحت الصخر لا تسميه التسمى ، استعملناه مقابل (ground water) بالإنكليزية و (nappe fréatique) بالفرنسية ، وتعرّفه الاصطلاحى فى المعجم المذكور : « ماء تجمع تحت سطح التربة فوق اول طبقة كثيفة » .

و كذلك (الغسل) — زنة الفعل — الذى معناه اللغوى من « خسلت شيئاً : رذلت وتنبأته » استعملناه مقابل اصطلاح (littering) بالإنكليزية و (abandon de detritus) بالفرنسية ، الذى لا نجد له في عربتنا الراحة — غير المهجورة — كلمة تؤدي معناه .

ولا ضير أن يكون لفظ المصطلح حوشياً غير متداول بل الانضل أن يكون كذلك لكلا يلتبس معناه الاصطلاحى بمعناه العام . والمصطلحات واجبة التعلم على كل حالة ولن يفهمها غير المتخصص ولو كانت من الانفاظ المأتوسة الجارحة يومياً على الاسنة . وإن شئت برها نا فاذهب إلى أي نجار أو حداد أو مسائخ .. وسله عن مصطلحاته وأسماء أدواته تستجد انك لن تفهم الكثير منها ولو كنت تعرف معانيها اللغوية العابية.

والعجب كل العجب من يتهمون العربية بالتصور في مضمار المصطلحات . لقد أتى على العربية حين من الدهر كانت فيه أغنى اللغات طراً بالمصطلحات العلمية من طب وذلك ورياضة ولاهوت وفلسفية وتصوف ولغة .. وكانت اللغات الأوروبية في عصر نهضتها ، وعلى رأسها اللاتينية ، هي التي تشكو عجزها عن مجازة هذه العربية والترجمة عنها ، فاضطروا إلى انتساب الكثير من المصطلحات العربية كما هي وادخلوها في لغاتهم مثل اللوغاريتم والصفر والجبر والكحول والقلو وحرف (x) الذي كان ينطق شيئاً باللاتينية ، مقابل الحرف (ش) العربي الذي اتخذه العلماء العرب رمزاً لكلمة (شيء) بمعنى الشيء المجهول .

لما نام العرب وخيمت عليهم عصور الجهل والظلم تعمد لغتهم العربية تنتظر قيامهم . وما هم اليوم قد هبوا وهو هو قد هبت معهم . وما من لغة عرفها تاريخ الفكر البشري أقدر من عربتنا هذه على سبك المصطلحات الدقيقة الموجزة ، لا المادية فقط بل المعنوية أيضاً ، من عقلانية ونفسانية وجودانية .

بشرانية ، لها قيمتها المثلية العملية نحن ما زلنا بحاجة إليها لكثره ما يقع في زماننا من حوادث الاعتداد ، السياسي وغيره .

والأخبار كثيرة في كتب اللغة عن عادات القوم ووجوه معايشهم مما لا تجده في كتاب الا حين تقرأ شرح معانى بعض الالفاظ التي أصبحت منكرة مجولة لدينا ، وحتى لدى العباسين والمويين ، بل حتى لدى الراشدرين الذين سبقوا ماتخذوا من دراسة الشعر الجاهلى ولا سيما الغريب من الفاظه احدى وسائل تفسير القرآن .

هذا الى ان المهجور والوحشى او الوحشى او البد : ضروري للدراسات اللغوية ، على الاساليب المصرية ولا سيما تأثيلاً وترسيساً .

ان المهجور ثروة اي ثروة ، لا تراثية تاريخية تخرية وحسب بل عصرية وعملية ايضاً ، فهي مادة خامة لسبك المصطلحات الحديثة — علاوة على ما تقدم من مناقبها .

علوم ان الاوربيين اعتادوا ان يستعمروا الناظا من الافريقية واللاتينية ليصوغوا منها مصطلحاتهم الحديثة لكلا يختلط المصطلح بالفاظ الاستعمال اليومي من لغتهم ، مثل : tele = (telegraph + graph) بدلًا من قولهم بالإنكليزية (written afar) مثلاً . وقد كان هذا المصطلح الافريقى حوشياً وغريباً على الناس اول الامر ، لكنهم تعلموه ودرجوا عليه .

وفي امكاننا استعمال الفاظنا المهجورة كذلك لبعض المصطلحات بدلاً من الانفاظ الادبية او الكثيرة الاستعمال . كنموذج انكر (التوتين) استعملتها بدلت (التوطين) في ترجمتي لمعجم (صيانته الطبيعية) مقابل : (immobilization) التي ورد تعريفها في المعجم : « ثبيت الحيوانات مؤقتاً في بقعة لغرض الاقتناص او الرمية او النقل او التجني ، الخ » * . والتوتين من « وتن بالمكان : ثبت واقتام » — وهكذا يتحميس (التوتين) بالمعنى الاصطلاحى المذكور وبقى (التوطين) على معناه العام .

وذلك (الغسل) — زنة الملل — وهو لغوي :

* « اللسان العربي » — العدد 12 — ج 1 — سنة 1975 ، ص 253 .

علميا على صحة (علم نشأة اللغة) من محاكاة الأصوات ، وإنها قادرة كذلك على ترسيس الانفاس لنفسها ولغيرها من اللغات المتولدة منها ، حتى الآريات .

ملنضرب للقاريء مثلا . قال ابن القابية الاعربى : (فرررر) يحاکى صوت رفرفة اجنحة الطائر وتعبرها عن فراره عند الاقتراب منه . ومن هذا الصوت صيغ فعل (فر يفـر فرارا) . ومنه تولد فعل تفرق (فـتـرـجـعـ) اي خاف ، وفرق (كـفـرـبـ) بين الشيـانـ ، فصل بينهما .. وفارق ، وتفرق ، ثم فرث وفرخ وفرد وفرز وفرش .. الخ ، ،

ومثلا من ترسيس الانفاظ الاجنبية نذكر كلمة (perka) الاغريقية التي يعدها اللغويون امثل (الفرج) بالعربية بسبب تطابق معناهما . بينما المعنى هو الصحيح ، لأننا نجد في العربية علة التسمية وهي (انفراخ) البيضة اي انشقتها ، عن الفرج ، شبهاها بتسمية (الفروج) ايضا لنفس السبب اي (انفراج) البيضة عنه ، او لاته يندرجها ويخرج منها . نفس الاغريقية لا يمكن تائيل perka لاتها لا امثل لها فيها ، لكن يمكن تائيلها وترسيسها في العربية هكذا : perka — فرخة ، فرخ — فرق — فر — فررر ..

ومن فعل (فر) نجد في الانكليزية : fear خاف .. و flight : خوف ، فرار ، ، و free حرر واطلق ، ، و fly : طار ، او فـيـلـةـ (لاتها تطير) . و flea : برغوث (لاته يفتر) .

وما نكتفى بذلك هذا المثل البسيط ، الا اختصارا . وهم عند ما يبحثون عن امثل المساواة لفاظتهم يرجعونها الى مشابهات لها بلغات اوربية اخرى قديمة او حديثة ، لكنهم لا يقولون من اين جاءت فدخلت في تلك اللغات ، في العربية وحدها يجدون الجواب .

يلاحظ قارئنا الكريم ان هذا الترسيس ليس عرضا لتطور لفظ الكلمة في عدة مراحل فقط بل لتطور المعنى في عدة مراحل كذلك . وثمة من النماذج ما هو اطول تسلسلا واكثر تشعبا وتصاعدا في ممارجه الارتفاع لا يتسع لها هذا المقام . (وقد قطعنا في كتابنا « مغامرات لغوية » وغيره من الدراسات الى ترسيس الكثير من الانفاظ الانكليزية وغيرها ، مثل riviera و

وبالاضافة الى هذا الكنز الذى لا يفنى من نفائس المفردات مأتوسها وبهجورها لدينا رصيد عظيم من قابلية الاشتراق لا مثيل لها في اللغات ، وكمانا شاهدا تلك الذخيرة الهائلة من اوزان الصيغ العربية تربو على (1300) وزن ، يمكننا ان نستنتها ونستخدمها ونستثمرها في (تقييس المعانى مع تقييس الاشتراق) ... وناهيك به منجما لاستخراج المصطلحات . وان رحتم شاهدا على فضل العربية من اقوال الاجاتب — وهي كثيرة — ناليك منها شهادة العلامة الفرنسي ارنست رينان — وهو ليس مديقا للساميين عامة ولا محبا للإسلام ، لكن عظمة العربية فرضت عليه مع ذلك ان يقول ، في منتصف القرن التاسع عشر :

« من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة اول الامر واذا بها تبدأ فجأة في غاية الكمال ، عظيمة السلامة ، مفرطة الفنى ، كاملة الى حد انها لم يطرأ عليها حتى اليوم اي تعديل مهم . مليبس لها طوله ولا شيخوخة ، ظهرت من اول امرها تامة مستحكمة . ولم يمض على فتح الاتدليس اكثر من خمسين عاما حتى اضطر رجال الكنيسة الى أن يترجموا ملوانهم الى العربية ليفهمها النصارى ! »

ومن اغرب المدهشات ان ثبتت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري عند امة من الرجل ، تلك اللغة التي فاقت اخواتها بوفرة مفرداتها ودقة معاناتها وحسن نظام مبانيتها .. .

لا نجادله في ثباته على العربية فالذى نظنه أنها مستحقة له ، لكننا نخالله في حقائقين علبيتين : او لاهمها ان العربية ان كانت غير معروفة اول الامر كما قال — ويصح هذا بالنسبة الى الاوربيين — فـلا يعني ذلك أنها نشأت كاملة وانها لم تكن لها طفولتها البعيدة في أعماق التاريخ . والثانية ان تلك اللغة التي قالت انتها في غاية الكمال لم تكن من صنع البداوة وحدها في حياتها المترحلة ، بل شاركت في الجانب الحضارى منها مناطق الحضر المستقر على مدى الاجيال . وحسبها عراقة وتقىماً ان من بناتها الساميـاتـ : البابلية والفرعونية والكمانـيةـ ، فضلا عما تلاها من ارمـيةـ ومندـانـيةـ وآشورـيةـ .

الدرس السادس

قلنا ان من مزايا عريبتنا أنها تستطيع ان تبرهن

calcium و copper
table و sing و
saxon و Caesar و ..
وريدناما الى ارساسها العربية)

سمفونية الصحراء

تدارد الاكتفاء بكلمة (الحسام) ليترك للسامع ان يحزن ما هو الشيء المقصود . وليس الاختصار هو الفرض وانما وجدوا ان ذكر الصفة وحدها واستقطاب موصوفها الواقع في النفس وابلغ في التعبير . ومن باب الاستمتناع باستعمال الصفة كنهاية عن الموصوف اتبعوا ذلك في تسمية الكثير من الاشياء ولا سيما الخطير منها ، من داهية وأسد وحية .

في اللغات الراقية من اوربية وغيرها ايضا يعدون الى المجاز والاستعارة . لكن من الذى يفعل ذلك منهم ؟ اهل الخيال والبلاغة .. الشعراء والادباء . وانما يدل اكتثار العربية منه على ان اهلها شعراء وفنانون ، او على كثرة الشعراء المتفقين فيهم . ومن هنا قبل ان كل عربي شاعر ، ولا بد ان يصر عنده البيتان او الثالثة ، ولو مرة في حياته .

وشدة اهتمام العربى بما يسمع من روائع الكلم ينتشروا ومنظوما في ندوات القوم والتهامه اياه باذنه وتلبه وفترط إلزاذة به جمل ما يسمع يرسخ في ذهنه ، فقويت بذلك حافظته فكان يعقل عليها تعويلا على اوراقنا وبنادقنا . فلما جاء الاسلام وانتشر التعليم جيلا بعد جيل اخذت الصحف المكتوبة تقوى والذاكرة تضفت بما لذلك حتى اخذوا بالتدریج يعتمدون على التدوين الى ان أصبح الاعتماد كله على التدوين ، على المهد العباسى * .

ان تحويل الالفاظ المجازية (الوضعية) الى الفاظ واقعية (عينية) قد كان منجما آخر اغدق علينا شيئا من الثروة اللغوية .

فمن هذا النجم اغترف ابو عبد الله بن خالویه المہذانی - الذي قال عنه ابن فارس انه جمع للسيف خمسة اسم ولحية مثنتين ، كما ذكر الشاعر ان حمزة الاصبهانی جمع ما يزيد على اربعين اسم للداهية .. وكما ذكر الاصمعی انه يحفظ للحجر - كذلك قلنا آئنا - سبعين اسماء .. ومثله قول ابی العلاء المعری انه يحفظ للكلب سبعين اسماء كذلك ، مثل تلك الاسماء صفات استعملت مجازا بدل الاسماء ثم صارت اسماء .

* بسبب عدم تنقيط الكتابة لم يكونوا يكتفون بقراءة الكتاب العلمي وحدهم ، مخافة التصحیف ، بل يشتغلون على العالم مرتاحه على مؤلفه او على شیخ ، اي استاذ عالم من شیخ آخر .. من المؤلف ، لكنها ينحو القارئ من غواص التصحیف وأخطاء الناسخین . لكن تلك الحافظة الجاهلية الفذة ضفت على كل حال .

الداهية :

نستعرض بعض اسمائها لنرى طريقهم في تسميتها هي التي طالما لوعتهم ، تجاهلهم في صحرائهم أنسى توجهوا وتأخذ عليهم كل سبيل .

من هذه الاسماء ما يهون امرها ، مثل : الملة (اي الزائرة) ، من قولهم الم بهم : نزل بهم واتام) ، والنازلة (تشبه الملة اي من الزيارة والنزول) .

ومنها ما هو اشد من ذلك مثل : الرييق (بالتصغير من الريق اي الجبل تربط به البهيمة) ، والأريق (بالتصغير ايضا ، من الارق والغم) .

ومنها ما هو اشد من هذا ايضا كالصبية (التي تصيب كالسمهم مثلا) ، والناثبة (التي تعضم بناتها) ، والجاثحة (المهلكة) .. والفاجمة .. والرزية .. والناثرة (التي تكسر نقار ظهرهم) ، وتلمظوا باسمها هذا كائنا تديلا فنطوه كذلك : الفيقر (كالفيق) .

وسموها الصم (كالصل) وهو مستعار من اسماء السيف (الذي يقطع الصميم وهو الفضروف بين الفقرتين) . ولا ادل على نزعتهم في اللعب باللفاظ وتتويعها امعانا في الانصاف وتشديد وقمع في النفس ، نفس المتكلم والسامع ، من تمطئهم باسمها هذا - وغيره كما سفرى - مذ نطقوه كذلك : الصمام وصمam (بالبناء على الكسر كخطام) .

وبعض اسماء الداهية يراد بها التهويل وارهاب السايم بخشونة لفظها وقوة جرسه بالإضافة الى معناها - كائنا ليخيفوا أنفسهم - على عكس ما تفعله المسباع اذ تخيف اعداءها بالزئير والزمجرة بالإضافة الى فتك المخلب والناب . من ذلك : العنتير والختنقي ! ويدو ان هذه الختنيق انحدرت من الحق طفتوا يتلاعبون ببنطله حتى تخنق . وأما العنتير فائتها (العتاق) - بالفتح - وهو احد اسماء الداهية ايضا ، ثم سموها (العنقاء) - وهي غير الطائر الوهي المشهور - ثم (العقزر) - باليزي المقططة ، زنة الجنل . ولم يشف غليلهم كل ذلك الى ان جاء يوم فنطقوها العنتير ، واستراحوا .

واحيانا يعمدون الى السخرية كقولهم كلامة عن

الوقوع في داهية : « وقعوا في قرنى حمار ، او في است كلب » او في غير ذلكم .

وقد يكون اسمها بعيدا عن التدليل والاستهانة والسخرية لينصح عن حقيقة شعورهم تجاهها ، مثل : الكريمة .

ولو نحن جمعنا اسماءها في وزن وقانية للفنا من سمفونية الصحراء ما يمكن تسميتها (نشيد البول) . نبيا يلى مثال من تلکم الاسماء المرعبة ، مما ذكرنا آننا وما لم نذكر :

حاطمةٌ جاثيةٌ ضراءٌ
ملمةٌ نازلةٌ مماءٌ
صمٌّ صمامٌ ينكبةٌ ويلوىٌ
ويلوءٌ بليبةٌ بلاءٌ
داهيةٌ ناقرةٌ وفَيْقَرٌ
صبيحةٌ نابيةٌ باسأةٌ
تد وقعوا في دربيبین باتمه
وفي است كلبٍ وأريقٍ فاجمةٌ
وقطميرٍ عَنْقِبَرٍ واغنةٌ
وختنقيتِيْ أُمْ هولٍ قارعهُ !

السيف :

معظم اسمائه من معنى القطع ، مثل الصارم والجراز والقرضاب والمطبق (كالمؤذن) : الذي يصيب طبق المعلم) والبخار ، ثم السيف (من المسائب اي القاطع ايضا ، مثل مياغة الطيف من الطائف والغيب من الغائب والغيب من الغائب واللبيث من اللائب) ، اي ان (السيف) ايضا صفة وليس اسماء جاما كما توهם اللغويون منذ القدم .

« قيل ان ابن خالويه زعم انه يحفظ للسيف خمسين اسماء ، فتبسم أبو على الفارسي وقال : ما احفظ له الا اسماء واحدا وهو السيف ! قال ابن خالويه : ثالث المهد والصارم وكذا وكذا ؟ قال ابو على : هذه صفات » .

لكن بحثنا التائيلي اظهر لنا ان (السيف) ايضا من الصفات ، كالذى اشرنا اليه * .

بالاضافة الى معنى القطع وردت للسيف اسماء هي مجرد نعت موضوعى لا يهتف مدها ولا ذما ، مثل

* تفصيل ذلك ورد في حديثنا « دخيل ام اثيل » - اللسان العربي ، العدد 12 - 1975 ، ج 1 - ص 18.

الاسد :

وما ادرك ما الاسد ، كان شيئاً مخوناً في تلك الايام ، لم يكن لديهم رشاشات ولا بنادق ليصيدهوه من بعيد . هو الذي يصيدهم من قريب . وسهامهم لا تصيبه من مسافة مامونة ، وان اصابته لم تصب منه مقتلاً الا في النادر ، لهذا لم يكن يجرؤ على مهاجمته ولا على مداومة هجومه الا راجع او سباق .. وتقليل ذلك البطل .

لذلك خصوه ببعض اسماء الاداهية والسيف — علاوة على اسمائه الرهيبة — مثل القسم (كالسر) والصمصام (كالثرثار) ، وكلاهما من اسماء السيف) والصيمة (كالهمة من اسماء الاداهية والسيف) . وتلمظا باسمه أضافوا الصنجم (كالسمسم) .

طبعي ان ائمهم عدوه بلاءاً اذا اعتاد قطع الطريق على المسافرين او اقتحام المصارب والخيام ليلاً على المقيمين . ومن ذلك قول المتنبي في وصفه : نزلت على الاردن منه (بلية) . وأحسبهم قد سموه في قديم زمانهم (بلوى) وهي كالبلية من اسماء الاداهية . طبلي على ذلك ان (belua) تطلق باللاتينية على الحيوان الضخم من اسد وغيل وحوت . ولا تستغرب اطلاق اسم الاسد على اكثر من حيوان هنا فان ذلك شائع في العربية ، وذكر من اسماء الاسد بالذات : الصيمة : الاسد والذكر من الحيات واثني التفند — كما تلنا قبل — والسيد (كالميد) : الاسد والذئب .. واللبث : الاسد وضرب من العنكبوت .

من اسمائه ايضاً ما هو مستوحى من لونه ، منها : الورد (من لون «الارض» بدليل أنها تسمى باللاتينية *erd*) (*) ، والمفتر (كالمفتر) والغير (كالسجل) من العَقر (كالمقرن) اي التراب .

ومن اسمائه ما هو وصف لخلقه مثل : ابى لبد والمبد (كالحسن) ، من لبنته اي الشعر الحبيط برقبته وصدره) ، ثم المفترن (كالمهير ، من عفرته اي لبدة رقبته) ، والخطار (المتختر) ، واللائث (من لاث شيئاً : لاكه في نبه ، لاته يلوك اللحم كما نراه ينعل في الحير *) ومن هذه صيغة اللبث .

الصفيحة والمأثور (في متنه اثر) والمشطب (في نصله شطوب اي خطوط) والدائر (الذى طال عمده بالقصال) .

وقد يكون الوصف الواقعى غير موضوعى ، ليدل على انه بلغ في التطع ، مثل المفتر (كالمظفر) : الذى في حده فقرات ، ومنه ذو الفقار سيف الامام على المشهور) والمشتمل (كالمثير : السيف القصیر يشتمل عليه بالثياب) .

ومن اسمائه ما يبنيء بمكان صنعه ، كالشرق (نسبة الى مكان في مشارف الشام) واليماني والهندي او الهنداوى . وليس هذه التسميات المكانية بالمحايدة هي الاخرى لأن المراد بها جودة الصنع .

ومن اسمائه أيضاً ما يحمل معنى التغزل والمباهة برونته مثل : الابيض والصتيبل والإبريق (البراق) والتشبيب (الحديث الجلاء) والرقراق (الكثي الماء) والعتيقية (وهي اصلاً : البرقة تستطيل في عرض السحاب ، ومن ثم قالوا « سلوا عقائق كالعقائق » اي سلوا سبونا تلمع كالبروق) .

ومن فرط حبهم له وعرفائهم بجميله وحسن بلائه في نصرتهم سموه : الظليل ! وشببه بذلك الرياء من الرذء — كالعبد — وهو : العون والنامر ، او من الرذيء — كالسعبي — اي : الصنم) .

اما من باب التلمظ باسمه فقد سموه المَذَاد والـالمَذَاهِد والـالمَذَاهِدِ (بالضم) .. والـالخَنْمُ (كالفطن) ، والـخَنْوُم (كالرسول) والـخَنْمُ (كالمثير) والـخَنْمُ (كالمدق) .

وي يكن جمع بعض اسماء السيف في أبيات من قبل :

ولى صارم ماضي الصفيحة وهَمْ
هَذُوم هَذَام مَخْنَم وَمَخْنَم
يعانِ جراز باتر النصل قَرْضُوب
رَاءِ تَشَبِّبْ ذُو الْكَرِيْهَه مَشْطُوبْ
تَشَبِّبْ تَضَابْ مَقْضَبْ وَخَلِيلْ
وَصِّمْ وَصَمَصَام يَهَدْ مَسْقَبْ

(*) نقلنا ذلك في بحث «الروض والعروض وال العراق» - كتابنا «تاريخهم من لفتهم» . * الحير - زنة الطير - حديقة الحيوانات .

وان شئنا وضع بعض أسماء هذا البيه المطاطش
في وزن ينتظمها لتأخذ مكانها في سمنونية الصحراء
عرضنا بعضها هكذا مثلاً :

هو الكاسر الخطأ والرابض الرادي
ابو لبد المعروف بالصمة الصاد
هو الاسد الريبل سيد عَرَنْتَسْ
عَفَرْنْ وعفرين عَفَرَنْ عَفَرَنْ ١
وعَفَرْ عَفَرْ عَفَرْ وعَفَرْ فَرْ
وعفريت العفريت ليث وقصوره
اسامة وَرْدَ ان تَرِيدْ حِيدُرْ
وان مال قرضاب هزير غضتر
وإن ناب رياض وإن قام ضيفم
مُهَامِصْ سَمَاصَانَ وَيَمْ وَيَمِصَمْ ! ..

ما كان العرب بطبيعة الحال يسردون أسماء
الداهية والاسد والسيف على هذا النحو ، وإنما
كانوا يستعملون كلاماً منها في عبارة تحكي موتنا متازماً
أو تروي خبراً مروعاً ، فيكون للكلام رهبة ووته
المخوّن بالطاعة الشعورية المؤثرة . . . يختارون لكل
حالة أحد هذه الأسماء الكثيرة المعبرة ، أما مجرد
سردها على هذه الوتيرة فلا يؤدي إلا المدار الفضيل
من الغرض الذي نريد إليه .

على أن اختلاف المعاجم وكتب اللغة في تعريف
هذه الأسماء وفي استعمالاتها يبنيء أن الأسماء والصيغ
قد كانت أكثر بكثير مما احصاه الرواة ، ما دام باب
الاستعارة مفتوحاً ، على مصراعيه أمام الجميع . لقد
كان في وسعهم وما زال في وسعنا — أن تستعمر من كل
نعت إسمًا لاي شيء ، فإذا صادف استحساناً شاع
ومرض نفسه على الأنواع .

ولو جمعنا كل تلك الأسماء مع أسماء الحية
والجمل والحمصان والغزلة وحتى الكبش والتيس . . .
ثم العسل والخمر والحب والبغض والخوف والغضب
والحرب . . . ووضعنا كلها في عبارة مناسبة
متجردة . . لأننا (سمنونية الصحراء) . .

وهل الشعر الجاهلي ، بجملته ، غير ذلك ؟

وكم أسماء له من معنى الكسر . منها قبل كل
شيء ، الكاسر ، ثم الفضائر (بالضم) ، من غضفت
عدا : كسرته) ومنها الفضائر أيضاً . ثم العرئنس
(كالسفرجل ، من عريسه : صرعيه) .

وي بعض الأسماء من معنى القطع مثل المزير (من
هزيرت شيئاً : قطعته) والقرضاب (من قرضبه :
قطعته) ، وهو من أسماء السيف) ..
وأسامة (من سام على القوم : أغار عليهم
نمات نيمهم) ..

ومن أسمائه المتنوعة : الصياد والصاد ، ثم
الريبال (ويخلالها اللغويون تخفيها من الريبال ، بالهمز
لكتنا نرى العكس لأن الكلمة مشتقة من الريبل والريل
أى التصييد ، ثم همزت) .. والضيغم (العَضَاضُ) ،
والضرغام (الضُّرْغَوبُ) ، من ضرم — كثرج — وتقترم
عليه : احتدم غضباً ، وضرم في الطعام : جذ في آكله
لا يدفع شيئاً منه) ، والسيد (كالعید ، من السيادة ،
تخفيها من السيد — بالتشديد — كما تنطق الكلمة
بالأسبانية بنفس المعنى : alcid).

وبلغ تلذذهم بتنويع الصيغ حد الاغراق في نعمت
هذا الحيوان في مثل العيم والصمة والصيميم (وكلها
بالكسر) والصمام (بالضم) والصمضام (بالفتح)
وهي مستعملة من أسماء السيف . ثم تبلغ النشوء
في التمعلق والتنويع اقصاها في : العفر (كالعطمر)
والعفريز (كالسجل) والعربيت والعفرين والعفريز
(كالهزير) والقرئن (كالعرفَنَى ، بكسرتين) والعربيتة
ـ (كالإطرية وهي من أسماء الداهية) والعربرس
والعربرس والعرراس (وكلها بالكسر) والعربروس
(كالعصور) والقرئنس (كالسفرجل) والقرفورة ..
نهذه أربع عشرة لفظة من مادة واحدة هي (العفر)
نهل يعني هذا شيئاً غير قوة حاسة الطرب والقلعين
ف القوم ؟

والكثير من أسماء الاسد أدل على الاعجباب
والتقدير منها على الكراهة والذعر .